

تفسير البحر المحيط

@ 356 @ وهي كانت طريقهم . البحر : قيل هو بحر القلزم من بحار فارس ، وكان بين طرفيه أربعة فراسخ ، وقيل : من بحر من بحار مصر يقال له أساف ، ويعرف الآن ببحر القلزم ، قيل : وهو الصحيح ، ولم يختلفوا في أن فرق البحر كان بعدد الأسباط ، اثني عشر مسلکاً .
واختلفوا في عدد المفروق بهم ، وعدد آل فرعون ، على أقوال يضاد بعضها بعضاً ، وحكوا في كيفية خروج بني إسرائيل ، وتعنتهم وهم في البحر مقتحمون ، وفي كيفية خروج فرعون بجنوده ، حكايات مطوّلة جداً لم يدل القرآن ولا الحديث الصحيح عليها ، فإني أعلم بالصحيح منها .

{ فَأَنْجَيْنَاكَ مِنْ } : يعني من الغرق ، ومن أدراك فرعون لكم واليوم الذي وقع فيه الفرق والنجاة والغرق كان يوم عاشوراء ؟ واستطردوا إلى الكلام في يوم عاشوراء ، وفي صومه ، وهي مسألة تذكر في الفقه . وبين قوله : { فَأَرْقَنَّا بِكُمْ الْيَمَّ } ، وبين قوله : { فَأَنْجَيْنَاكَ مِنْ } محذوف يدلّ عليه المعنى تقديره : وإذ فرقنا بكم البحر وتبعكم فرعون وجنوده في تقحمة فأنجيناكم . { وَإِذْ فَأَرْقَنَّا بِكُمْ } والهمزة في أغرقنا للتعدية ، ويعدى أيضاً بالتضعيف . ولم يذكر فرعون فيمن غرق ، لأن وجوده معهم مستقرّ ، فاكتمى بذكر الآل هنا ، لأنهم هم الذين ذكروا في الآية قبل هذه ، ونسب تلك الصفة القبيحة إليهم من سومهم بني إسرائيل العذاب ، وذبحهم أبناءهم ، واستحيائهم نساءهم ، فناسب هذا إفرادهم بالغرق . وقد ذكر تعالى غرق فرعون في آيات آخر ، منها : { فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ } ، { حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ } ، { فَأَتَتْ بِهِ نَارُ الْيَمِّ } فرّعوّون بجنودهم فغشيههم منّ اليمّ ما غشيههم } . وناسب نجاتهم من فرعون بإلقائهم في البحر وخروجهم منه سالمين ، نجاتهم موسى على نبينا وعليه السلام من الذبح ، بإلقائه وهو طفل في البحر ، وخروجه منه سالماً . ولكل أمّة نصيب من نبيها . وناسب هلاك فرعون وقومه بالغرق ، هلاك بني إسرائيل على أيديهم بالذبح ، لأن الذبح فيه تعجيل الموت بأنهار الدم ، والغرق فيه إبطاء الموت ، ولا دم خارج ، وكان ما به الحياة { وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيًّا } سبباً لإعدامهم من الوجود . ولما كان الغرق من أعسر الموتات وأعظمها شدة ، جعله الله تعالى نكالاً لمن ادّعى الربوبية ، فقال : { أَنْزَلْنَا رَبُّكُمُ الْإِلَاحَ } ، إذ على قدر الذنب يكون العقاب ، ويناسب دعوى الربوبية والاعتلاء انحطاط المدّعى وتغييبه في قعر الماء . { وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } : جملة حالية ، وهو من النظر : بمعنى الإبصار . والمعنى ،

واﻻ أعلم : أن هذه الخوارق العظيمة من فرق البحر بكم ، وإنجائكم من الغرق ، ومن أعدائكم ، وإهلاك أعدائكم بالغرق ، وقع وأنتم تعاينون ذلك وتشاهدونه ، لم يصل ذلك إليكم بنقل ، بل بالمشاهدة التي توجب العلم الضروري بأن ذلك خارق من عند ﻻ تعالى على يد النبي الذي جاءكم . وقيل : وأنتم تنظرون إليهم لقرب بعض من بعض ، وقيل : إلى طفوهم على وجه الماء غرقى . وقيل : إليهم وقد لفظهم البحر وهم العدد الذي لا يكاد ينحصر ، لم يترك البحر في جوفه منهم واحداً . وقيل : تنظرون أي بعضكم إلى بعض وأنتم سائرون في البحر ، وذلك أنه نقل أن بعض قوم موسى قالوا له : أين أصحابنا ؟ فقال : سيروا ، فإنهم على طريق مثل طريقكم ، قالوا : لا نرضى حتى نراهم ، فأوحى ﻻ إليه أن قل بعصاك هكذا ، فقال بها على الحيطان ، فصار بها كوى ، فترأوا وتسامعوا كلام بعضهم بعضاً . وهذه الأقوال الخمسة النظر فيها بمعنى الرؤية ، وقيل : النظر تجوز به عن القرب ، أي وأنتم بالقرب منهم ، أي بحال لو نظرتهم إليهم لرأيتموهم كقولهم : أنت مني بمرأى ومسمع ، أي قريب بحيث أراك وأسمعك ، قاله ابن الأنباري . وقيل : هو من نظر البصيرة والعقل ، ومعناه : وأنتم تعتبرون بمصرعهم وتنعطون بمواقع النعمة التي أرسلت إليهم . وقيل : النظر هنا بمعنى العلم ، لأن العلم يحصل عن النظر ، فكفى به عنه ، قاله الفراء ، وهو معنى قول ابن عباس . . .

{ وَإِذْ وَاَعَدَّ نَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَّيْلَةً } قرأ الجمهور : واعدنا ، وقرأ أبو عمرو : وعدنا بغير ألف هنا ، وفي الأعراف وطه ، ويحتمل واعدنا : أن يكون بمعنى وعدنا ، ويكون صدر من واحد ، ويحتمل أن يكون من اثنين على أصل المفاعلة ، فيكون ﻻ قد وعد موسى الوحي ، ويكون موسى وعد ﻻ المجيء للميقات ، أو يكون الوعد من ﻻ وقبوله كان من موسى ، وقبول الوعد يشبه الوعد . قال القفال : ولا يبعد أن يكون الآدمي يعد ﻻ بمعنى يعاهده . وقيل : وعد إذا كان عن غير طلب ، وواعد إذا كان عن طلب . وقد رجح أبو عبيد